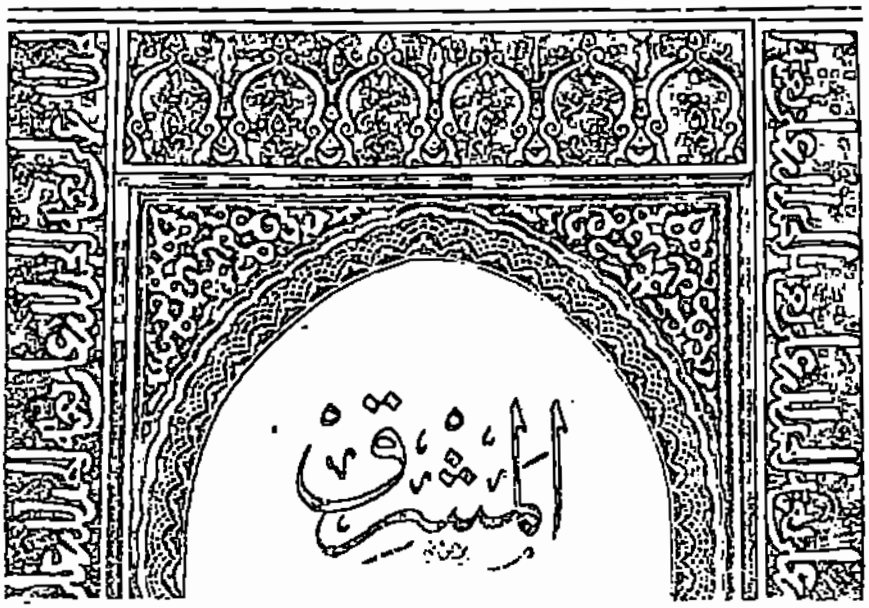

السنة الثانية والثلاثون
تشرين ١ – كانون ١ ١٩٣٦

الحِلم عند العرب

محاولات في تحديده

بقلم الاب لامنس اليسوعي

من اكثر الالفاظ دوراناً على السنة خطباء العرب ، وعلى اقلام كتّابهم ، اذا ما ارادوا وصف سيّد كريم مُطاع ، لفظة « الحلم » . فهم يجمعون فيها طائفة من الصفات المتعدّدة المتتابعة من رباطة الجأش ، الى تسكين الغضب ، الى مفاجأة الخصم بعدم اللوم ، الى التظاهر بالصفح والتجاوز عن الاساءة ، الى غير ذلك من اخلاق تظهر جديرة بكل تقدير في نظر العرب ، ذاك الشعب السريع التأثر الهيّاج الاعصاب ، ولكنها لا تسلم من الغموض اللاحق حتماً بكل لفظ اضطرب استعماله وتشعّبت غايات مستعمليه .

قد رأينا ان نُعيد النظر في مدلول « الحلم » فنستعين بمواقف التاريخ ، وشواهد الشعر القديم ، محاولين جمع هذه التشعّبات ، فالعمل على تحديد اللفظة وتفصيل ما تتضمّنه من المعاني في نظر العرب .

ونبدأ بالقول ان الحلم صفة مركبة ، بل مزيج من صفات عديدة . فلا هو الصبر وحده ، ولا التساهل ، ولا الصفح ، ولا تحمّل الاساءة ، ولا رباطة الجأش ، ولا نضج العقل . انما يكتفي بان يتخذ من كل هذه الصفات بعض المظاهر الخارجية فيفتر بها الناظر لاول وهلة ، حتى لا يمكن فهم المقصود بالحلم الا بفضل المعنى الاجمالي في الفقرة[1] . فينتج من هذه الاستعارات الخارجية صفة عربية محضة ، عجيبة التركيب ، مضطربة التحديد ، وافرة الغموض حتى ان الانسان ليحار في الحكم عليها اهي من الفضائل ام من النقائص . وهي صورة لعقلية الشعب العربي ولطبيعته المركبة من الاضداد المتنافرة ، طبيعة عصبية ، راغبة في الظهور ، محدّدة الاطراف ، تردحم فيها الاخلاق المتباينة دون توازن ولا تتابع في دقائق العواطف ، فتتصادم في تلك الطبيعة التي عرفت مدنية عريقة[2] ، ولكنها هبطت بتأثيرات المناخ العميقة ، فانحطت الى حالة تجاور الهمجية .

مما يسهّل علينا الوصول الى ماهية الحلم الحقيقية ان نبدأ اولًا فنذكر ما ليس بحلم ، فنفصله عمّا قد يخلطه به بعض الناس من الصفات المشابهة خارجيًا :

اننا نخطئ خطأً فظيعاً اذا شبّهنا الحلم بالوداعة الانجيلية . لان هذه الفضيلة تنتج من كون الانسان يفهم نفسه حقّ الفهم ، وتستند خاصةً الى التواضع . والحال ان ليس من مكان للتواضع في الحلم ، بل ليس من محل للوداعة الانجيلية في الصفات العربية الاصيلة ، في تلك « المروءة » القديمة التي طالما افتخر بها العرب[3] . وقد شعر قدماؤهم بهذا الفرق بين « مروءتهم » والمثال النصراني الاعلى ، فكانوا ، على احترامهم وداعة اخوانهم المسيحيين ،

---

١) نرى الحسين بن علي ، في كربلاء ، يمضّ اخته الباكية الصاخبة على ان لا تفقد « حلمها » (الطبري ٢ : ٣٢٤ ، ١) وقد يأتي الحلم بمعنى العقل ، كما في قول المتلمّس (الديوان ١ : ٨ ؛ والاغاني ١٣ : ١٠٦ ، ٩) : فتى السنّ كهل الحلم . . .

وسنعود الى هذا المعنى .

٢) راجع H. Winckler, *MVAG*, 1901, pp. 188-189 ولا سيما L. Caetani, *Annali dell' Islam*, 2° vol.

٣) اطلب Ig. Goldziher, *Muhammedanische Studien*, I, 1-40

ينفرون من ان تُنعت رماحهم بالنصرانية[١] ، فتُنسب اليهم عاطفة وداعة وتساهل لم يعرفوها قطّ . لان ذاك الشعب المعجب كل الاعجاب بصفات الرجولة والقوة كان يفتّش في غير الوداعة عن مثال « مروّته »، او فضيلة « المرء » اي الرجل . وهكذا فاننا نرى اشهر من مثّل الحلم عند العرب — وسنعدّد اسماءهم في ما يلي[٢] — يتهمون ، قبل كل شيء ، بابعاد كل ما من شأنه ان ينسب اليهم الاتضاع ، بل يفرقون من ان تظهر على حلمهم امارات الضعف التي ينسبونها الى الذلّ ، فيقولون ، اذ ذاك : « الحلم هو الذلّ ! »[٣] او : « آفة الحلم الذلّ ! »[٤]

ولا يكتفي الحلم بكونه لا يستند الى التواضع ، بل انه يرمي الى اذلال الخصم وخزيه[٥] اذ يفاجئه الحليم بسموّ عواطفه ورباطة جأشه ، والى افحامه بالجواب الموجز المُسكت[٦] ، على ظهور السكينة والطمأنينة .

ثم ان الحليم لا يرمي الى تهذيب قريبه ، وان رغب في «تقليم اظفار جهله» احياناً[٧] . واذا ظهر على الحليم احتمال النلبة مرة فذلك كي لا يقاسي غلبة اشدّ منها . « ومن لم يصبر على كلمة سمع كلمات .»[٨] هي فكرة الاحنف ، اشهر الحلماء بعد معاوية .

وهناك فرق آخر بين الحلم والمغفرة المسيحية . وهو ان هذه الفضيلة تنزع

---

١) وقد زعمت جهراء ان رماحنا رماحُ نصارى لا تخوض الى الدم
(الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية ٤٠٩)

٢) كقيس بن عاصم ، والاحنف ، وغيرهما ممن سنذكرهم بالتفصيل .

٣) ابن قتيبة : عيون الاخبار (Brockelmann) ٢٤١ ، ٩

٤) هذا قول الاحنف ، العقد ١ : ٢١٩ ، ٣

٥) راجع العقد ٣ : ٩٣ ، ١ . . . وفيه ذكر رجل يظهر مثالاً للحلم والزهد الاسلامي ، كما انه مثال لاحتقار غيره من الناس . وقابل باحتجاج ابن عباس على معاوية اذ مدح هذا « لين » الحاشيين ، فاعتبر الحاشي هذه الصفة اهانةً . (العقد ٣ : ١٢٤—١٢٥)

٦) راجع امثلة من هذه الاجوبة في العقد ١ : ٢١٧

٧) العقد ١ : ٢١٧ ، ١٤ ؛ الحصري : زهر الآداب (على هامش العقد) ٣ : ١٣٤ ، ٣ ؛ واطلب ، في اصل الاستعارة ، العقد ٢ : ٥٠ ، ١٥ . . . وفي استعمالها في الشعر القديم ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء (de Goeje) ١٠١ ، ٤-٨

٨) الحصري ١ : ٥٧

من صاحبها حتى فكرة الانتقام او الرغبة في ضرر الغير ، فتسكن حتى تزولت القلب الداخلية . وليس شيء من هذا في الحلم العربي . فان الحليم يسكت لسانه فلا يردّ على الشاتم ، ولكن اذنه تظلّ منتبهة لسماعها ، وقلبه يقظاً لتذوّق مرارتها ، على حدّ قول القائل :

حلمي اصمّ ، وأذني غير صمّاء ! (١

ولا شيء يمنع الحلم ان يتفق والرغبة في الانتقام . يدلنا على ذلك شواهد عديدة منها ما جرى لمعاوية ، افضل من يعرضه العرب مثالاً للحلم التام ، ونحن نكتفي باثنين منها دلالةً على الفرق بين الاموي « الحليم » وبين رجل «وديع» كالقديس فرنسيس سالس مثلاً :

اجتمع قوم من قريش فذكروا حلم معاوية ، فقال بعضهم : «ما اظنّ معاوية اغضبه شيء قطّ . » فقال غيره : « ان ذُكرت امه غضب . » فقال مالك بن اسماء المُنى القرشي(٢ : « انا أُغضبه ان جعلتم لي جُعلاً » ففعلوا . فاتاه في الموسم فقال له : « يا امير المؤمنين ان عينك لتشبهان عيني امّك » . قال : « نعم كانتا عينين طال ما اعجبتا ابا سفيان . » ثم دعا مولاه شقران فقال له : « أعددْ لاسماء المُنى دية ابنها ، فاني قد قتلته وهو لا يدري . »(٣ يريد انه بحلمه واغضائه عنه قد برّأه على التهجم . وهكذا كان فان مالكاً بعد ان رجع الى جماعته وقبض الجعل قالوا له : « ان أتيت عمرو بن الزبير فقُل له ما قلت لمعاوية أعطيناك كذا وكذا ! » فاتاه فقال له ذلك . فامر بضربه حتى مات . فبلغ معاوية فقال : « انا ، والله ، قتلتُه . » واقراراً لقوله هذا ، بعث الى امه بديته .

وهناك حادثة اخرى لعلها توسيع لهذه مفادها ان اعرابياً راهن قوماً على جُعل أنه يُسمع معاوية ما يكره . فكظم معاوية غيظه ، حتى اذا تجرّأ الرجل ، وقاطع زياداً في احدى خطبه ، امر به زياد فضربت عنقه . فقال معاوية

١) العقد ١ : ٢٢٨ ، ٦

٢) هو غير مالك بن اسماء بن خارجة ، فهذا فزاري عاصر الحجاج ؛ وكان ابن سيد فزارة الاموي الغوى (راجع المسعودي ٥ : ٢٩٨-٢٩٩ ؛ والطبري ١ : ٣٠٢٥-٣٠٣٦ . . .

٣) البيهقي : المحاسن والمساوئ (Schwaly) ٥٥٣-٥٥٤

لما اتاه الخبر :« لو اصلحته في الاولى لما اتى الثانية . »[1]

وقد روى البيهقي[2] عن الاحنف بن قيس ان رجلاً جاءه فلطم وجهه . فقال :« بسم الله ، يا ابن اخي ، ما دعاك الى هذا ؟ » قال :« آليت ان الطم سيّد العرب من بني تميم » . قال :«فبرّ بيمينك ، فما انا بسيّدها . سيّدها حارثة ابن قدامة . » فذهب الرجل ، فلطم حارثة . فقام اليه حارثة بالسيف فقطع يمينه . فبلغ ذلك الاحنف فقال :« انا ، والله ، قطعتها . »

يُستنتج من هذا ان العرب كانوا لا يرون بأساً في الجمع بين عاطفة الانتقام والتظاهر بالعفو ، وان صفة الحلم لم تكن تمنع الحقد وكتم الضغينة . وكثيراً ما كان الحليم يعمل على ايقاع من يتظاهر بالعفو عن ذنبه في ورطة لا خلاص له منها . وكلها عواطف بعيدة عن الروح الانجيلية بعدها عن فضيلة المغفرة المسيحية . ولكن العرب لا يأبهون للتدقيق في تحليل هذه الصفة ، فهم لا يألون جهداً في اكبار من قدمنا ذكرهم من ممثلي الحلم . حتى ان النصارى منهم لا يختلفون عن جمهورهم في هذا التقدير . يشهد بذلك الاخطل ، شاعرهم الاكبر ، فانه اذا اراد ان يهجو قوماً فيذلّهم ، قال :

قُبيلةٌ ما يغدرون بذمّة ولا يظلمون الناس منقيرَ درهم ،
ولا يردون الماء الّا عشيّةً على طول أظماء ، ووجه لئيم[3]

فأثر الهجاء كل التأثير حتى اصبح القوم عرضة لغزو العرب ، لانّ من طبيعتهم ان يخلطوا بين اللين والضعف ويجعلوا الشراسة من شروط السؤدد[4] .

واذا فلا يمكننا ان نعتبر التساهل والوداعة من فضائل العرب الاساسية ،

---

١) العقد ١ : ٢٢ ؛ وقابل بما يُروى عن عمرو بن العاص ، في أسد الغابة ٤ : ٢٤١ ؛ وابن قتيبة : عيون الاخبار ٢٢٣

٢) المحاسن والمساوئ ٥٥٤

٣) ديوان الاخطل (طبعة صالحاني) ٢٩١ ، ٢ — ٣ . وقد اخذ عن الحطيئة . الا ان ما جئنا في الموضوع كونه استغلّ هذا المعنى فسبّه لنفسه . وقد استغله قبله الشاعر النجاشي (العقد ١ : ٢٠٢ و ٣ : ١٤٢ ؛ الحصري ١ : ٢١ ؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٨٨ : ١٨٩) وشبيه هذا المعنى ما قال الاخطل في البيت ٧١ من رائيّته « خفّ القطين » . راجع الجاحظ : البيان ٣ : ٦٦ ؛

٤) الحماسة ٢٢٥ ، البيت ٢

وهم يهجون بعضهم بالعجز عن اتيان الشرّ، بل بخشية الله، كما قال الشاعر يهجو قومه :

لكنّ قومي، وان كانوا ذوي عدد ، ليسوا من الشرّ في شيء ، وان هانا
كأن ربّك لم يخلق لخشيته سواهم ، في جميع الناس ، انسانا (١

وقد قالوا : « الحليم مطيّة الجهول » (٢) ، واظهروا ، في جميع مواقفهم ، اعجابهم بالقوة الباطشة واكبارهم لمظاهرها المختلفة . هذا فضلاً عن كون الحلم نفسه ، بذاك التحديد المذكور اعلاه ، قد انتهى عهده بانتهاء الدولة العربية الخالصة اي بانتهاء العصر الاموي ، فدفنه العباسيون باستبدادهم مع ما دفنوه من الصفات العربية القديمة (٣) .

وقد جهد ابن عبد ربه نفسه ، في مجموعته العجيبة ، ليبرهن ان المثال الاعلى للاخلاق البشرية ان يجمع الانسان بين المقدرة على عمل الخير والمقدرة على عمل الشرّ كذلك . « فلا يرضى العاقل ان يكون الا اماماً في الخير والشرّ . » أوَ لم يقل الشاعر في مدح احد المحسنين اليه :

ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى لضرّ عدوّ او لنفع صديق (٤

وهذا موضوع رائج في الشعر العربي القديم استغله المدح والهجاء على السواء ، كما نرى في شعر الحطيئة (٥) وفي الكثير من شعر الحماسة (٦) .

اذا فهمنا هذه الدقائق رأينا ان الحلم يفرض لا القوة والبطش فحسب ، بل المقدرة على استعمالهما في سبيل الضرر دون الخوف من العواقب ، على نحو

---

١) العقد ١ : ٣٠٢

٢) العقد ١ : ٢٢٨، ٣٠٢ ؛ وفي عيون الاخبار لابن قتيبة ٢٣٣ : « الحلم مطيّة الجود » .

٣) راجع رأي الجاحظ : البيان ٢ : ١٥٤ ؛ وسنعود الى هذه الفكرة

٤) العقد ١ : ٣٠٢

٥) القصيدة ٢٧ : ٢٢ وتعليق غولدسيهر في *ZDMG*, p. 168-169 وقابل بها في *ZDMG*, 1893, p. 191 – وانظر كذلك عدداً من الاحاديث جمعها ابن قتيبة في عيون الاخبار ٢٦٩–٢٧٠ ليبيّن ان من شروط الجود مقدرة السيد على الضرر ؛ وان من اشهر ما انتُقد على آلهة الشرك القديمة انها « لا تنفع ولا تضرّ » .

٦) حماسة ابي تمام ١، ٦٥١ مثلاً .

ما جاء في الكامل في تحديد « الحِلم المحض » قال: « يُقال: حَلُم اذا ترك ان يقول الشيء لصاحبه منتصراً ، ولا يخاف عاقبة يكرهها ، فهذا الحلم المحض. »[1] ولقد كان من الواجب ان نشير الى هذه الميزات في النفسية العربية قبل ان نباشر درس الحِلم . وسنرى في الشواهد التالية ما يؤيد هذه الوجهة من النظر:

كان حارثة بن بدر في مجلس صديقه زياد ، فذكر احدهم حِلم الاحنف واثنى عليه . فابتسم حارثة وقال: « ما يبلغ حِلم من لا قدرة له ولا يملك لعدوّه ضرّاً ؟ »[2] وقد يكون الاحنف نفسه يرى هذا الرأي ، اذ اجاب من سأله ايّ اوسع حلماً أهو ام معاوية ، فقال: « تالله ، ما رأيت اجهل منكم ا ان معاوية يقدر فيحلم ، وانا احلم ولا اقدر ، فكيف أُقاس عليه او ادانيه؟ »[3] ولقد كان للاحنف اسباب تدفعه الى اجتناب المقايسة . كان بشع الهيئة[4] : « اصعل الرأس ، احجن الانف ، أغضف الاذن ، متراكب الاسنان ، أشدق ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة ، باخق العين ، خفيف العارضين ، احنف الرجلين » وكان الى ذلك بخيلاً يزعم ان الرأي من آرائه يساري عشرة آلاف درهم[5] . فلم يبقَ له ، والحالة هذه ، في طلب السؤدد[6] الا ان يستند الى الحلم[7] وهي فضيلة لا ينازعه اياها الكثير من العرب.

وهناك الشعراء وهم لا يختلفون في وصف الحلم عن حارثة والاحنف . قال الحطيئة في مدح احد السادة :

وقورٌ اذا ما شاء حلماً وتائلاً ، وان كان امضى من أحدَّ وقيع[8]

---

١) الكامل ١٠٢، ١٠٣ ٢) الاغاني ٢١ : ١٤٤،٤٢ ٣) العقد ١ : ٢١٨

٤) الخبري ٣ : ٢٦٢، ٢٦٤ ؛ الجاحظ : البيان ١ : ٣٦-٣٧

٥) الخبري ٣ : ٢٦٠-٢٦٣ . على ان الجاحظ لا يذكره في كتاب البخلاء. ويذكر الكامل فضله على الارامل . وللاحنف شطر بيت يفيد ان الكرم فضيلة الاغنياء. في (الجاحظ : البيان ٣ : ٢٦)

٦) كان سيد تميمي البصرة لا سيما بني قيم ، اطاب ابن دريد : الاشتقاق ١٤،١٥٣

٧) راجع ، في كون الحلم سيل السؤدد ، ابن قتيبة : عيون الاخبار ١٢،٢٧١ ؛ ٥،٢٢٣، وفيه المثل : احلم تسُد .

٨) ديوان الحطيئة القصيدة ٥٨ : ٩

وقال النابغة الجعدي ، ذاك المخضرم المصطبغ على جاهليته بصبغة صدر الاسلام :

ولا خيرَ في حلم ، اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه ان يكدّرا (١

وقد سمع محمد هذا البيت فهنأ الشاعر ودعا له بان « لا يفضّ الله فاه »(٢ وهو دعاء يفيدنا رأي نبي الاسلام في الموضوع ، وما ابعده عن « تطويبات» الانجيل ! (٣

وقال شاعر آخر :

ان من الحلم ذلًا انت عارفه ؛ والحلم عن قدرةٍ فضلٌ من الكرم (٤

ولا يخفى ذاك التأثير الذي احدثه في الخليفة عبد الملك وفي معاصريه(٥ بيت الاخطل في بني امية :

شمس العداوة حتى يُستقاد لهم واعظم الناس احلامًا ، اذا قدروا(٦

فقد سار البيت سير المثل حتى اجمع النقّاد على انه امدح بيت وافخره في الشعر العربي(٧ . ولا سرَّ في ذلك سوى ان الشاعر توفق الى الجمع بين البطش واللين، بين القدرة والعفو(٨، وما الى ذلك من الصفات المتعاكسة فجعلها متوازنة

١) العقد ١ : ٢١٦، ٧ ؛ وابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٥٩، ٤ ، وفيه بيت آخر للنابغة الجعدي يقابل فيه بين الحلم والجهل ، وسنعود الى ذكر هذه المقابلة . وقد يكون مفيدًا ان نشير الى الاتفاق في الفكرة بين البيت المذكور اعلاه وهذا البيت لمالك بن حريم (حماسة ابي تمام ٥٣٠ ؛ وابن دريد : الاشتقاق ٢٥٤، ١٥ ؛ ٢٨٥، ٣) :

متى تجمع القلب الذكيَّ وصارماً وانفاً حمياً ، تجتنبك المظالم

٢) العقد ١ : ١٤، ٧ و ٢١٩ : ٨ ؛ الاغاني ٤ : ١٣١، ٢

٣) وللراجع ، مع هذا ، ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢٢١ ، وفيه روايات سببها الاختلاف في نشأة الحديث .

٤) الحماسة ٥١٦، البيت ٤ ، واطلب : Goldziher, *op. cit.*, I, 224

٥) راجع كتابنا *Le Chantre des Omiades*, p. 72...

٦) ديوان الاخطل ١٠٤، ٨

٧) الاغاني ١٠ : ٧٥، ٧

٨) وقد لاحظ عبد الملك (وفي رواية اخرى نُسب هذه الملاحظة الى معاوية) ان الشعراء ، اذا ارادوا وصف الامويين ، شبّهوهم بالاسود الزائرة ، اما اذا مدحوا العلويين فانهم يكتفون بذكر صفاتهم الدينية . الاغاني ١٣ : ٦٢، ٥٨ ؛ ٢١ : ٨، ١٠ ؛ وابن قتيبة : الشعر

في نفس سامية[1] . ولولا هذا لاضحى الحلم ضحكة في نظر العرب.

واذاً فليس في الحلم من عنصر مطلق مجرّد. بل ليس ، في نظر العربي ، من وجود لتلك الفضيلة السامية فوق تغيّر الظروف ، وان من لا يتكيّف ليس بالرجل العاقل. أرَ لم يقل الشاعر دالاً على تغيّر اخلاق قومه نسبةً الى الحوادث العارضة :

احلامنا ترن الجبال رجاحةً ، ويزيد جاهلنا على الجهّال (٢

فالحلم فضيلة وقتية[2] ، اذا صحّ لنا التعبير ، بل فضيلة ظرفية[3] . يُستند في الحكم عليها الى حالة الحليم ومركزه من الهيئة الاجتماعية فان كان قوياً بطّاشاً ، ان كان اميراً او على الاقل «سيّداً مطاعاً»[5] ، فهي فضيلة . وان كان ضعيفاً او لا يمكنه ان يضرّ ، فهي نقيصة لا شك فيها.

ومن عناصر الحلم الجوهرية أن يعنو لارادة القبيلة سواء أكانت هذه الارادة توافق مصلحة صاحب الحلم ام لا. فلا يمكن الحليم ، والحالة هذه ، ان يلجأ الى

والشعراء ١١،٢٠١ ؛ وقابل بما ورد في الحصري ٣ : ٢٢٧ ، ومدح يزيد الاول في Wright, *Opuscula arabica*, p. 119,8 . وانظر ، في الغاب « سجّاد ، ناسك ، عابد ، فقيه ، قارئ » ، التي يُنعت بها الهاشميون ، ابن سعد : الطبقات ٥ : ١٣ السطر الاخير ؛ ٤،١٥ ؛ ٢٦،٢٨ ؛ ٢٩ . . . ؛ ١٦،٢٣٠ ؛ ٢٦،٢٠٠ ؛ ١٠،٢٢٣ ؛ ١٨،٢٢٧ ؛ المسعودي ٥ : ١٦٣ . على ان الطبري (٢ : ٨،٤٢٩) ينعت « بالناسك » عبدالله بن يزيد الاول.

١) قال بقول احدهم في مدح الملك : « يعفو عند قدرته » الاغاني ١١ : ١٦٣ ؛ وبما جاء في عيون الاخبار ٤،٢٢٢ : « ما أُضيف شيء الى شيء أزين . . . من عفو الى مقدرة. »

٢) الحماسة ٧٣٥ ، البيت ٥

٣) قابل بما جاء في الحماسة ٥،٢١٠ : « وقد يستجهل الرجل الحليم ». والفعل فيه بصيغة المجهول، وما اراه الا معلوماً. ومن المفيد ان يُرجع الى تلك المقابلة التي ذكرها النابغة الجعدي بين الحلم والجهل (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٥ : ٢-٤) ولا ضرر في الصفتين الا بتجاوز الحدّ.

٤) قابل بما في الاغاني ١٣ : ٥٦ : ١٨

٥) راجع في هذه التعابير : « سيد مطاع ، غير منازع ، غير مدافع ، لا يعصونه ، مطاع لا يعاصى » الاغاني ١١ : ٥٥ ، ١٦ ؛ الواقدي ٨،٥٨ : اسد الغابة ٤ : ٢١٥،٢٢٧ ؛ الطبقات ١ : ٤٨،٤ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ٢٧٩ ؛ ١٢٤،١٩ ؛ ١٢٨،١٥ ؛ الازرقي ٤٧،١٢ ؛ ٤٩ ، السطر الاخير ؛ ٥٨ – وقد ورد في نعت علي هذه الصفة النبوية : « امير مطاع ومأمور مطيع » الجاحظ : البيان ٣ : ٢٣٩

حلمه اذا لم يوافق رجال عشيرته[1] وقد قال يزيد بن الحكم في رثاء ابنه عنبس:

حمولٌ ، اذا جهلُ العشيرة يُبتغى؛ (٢ حليمٌ ، ويرضى حلمَه حلماؤها (٣

ومن فضل الحليم ان يستخدم حلمه عن بصيرة وتروّ فيترفّع عن دواعي الترق من جهة ، ويترفّع من جهة اخرى عن دواعي الشفقة والانسانية . فيسير حلمه كيف شاء ، كما قال الشاعر :

عليهم وقار الحلم حتى كأنما وليدهم ، من اجل هيبته ، كهلُ
اذا استُجهلوا ، لم يزب الحلم عنهم؛ وان آثروا ان يجهلوا عظم الجهلُ (٤

او كما قال عمرو بن كلثوم :

الا لا يجهلنْ احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا (٥

وهاكم بيتاً في المعنى نفسه :

وللحلمُ خيرٌ ، فاعلمنَّ ، مغبّةً من الجهل ؛ الّا أن تُنسَّ من ظلم (٦

وهذا ، وهو اوضح :

انّي كنت محتاجاً الى الحلم ، انني الى الجهل ، في بعض الاحايين ، أحوجُ . . .
ولي فرسٌ للحلم بالحلم مُلجمٌ ؛ ولي فرسٌ للجهل بالجهل مُسرجُ (٧

---

١) راجع معلقة عمرو بن كلثوم : البيت ٥٢

٢) ولا شك ان ناظمه حاتم طي اقرب الى الانصاف في قوله (الديوان (Schulthess) القصيدة ٣٧ : ١٤) :

سأعبره ان كان للحق غالباً ؛ وان جار ، لم يكثر عليه التعتّبُ .

٣) الاغاني ١١ : ٣ : ٤٠١ . وهو يشبه قول ليلى الاخيلية في توبة (الاغاني ١٠ : ٧٩ ؛ الحصري ٣ : ٢٤٧ : الجماهر ١٠ ٣)

وكن أكيسَ الكيسى ، اذا كنت فيهم ؛ وان كنت في الحمقى فكن انت احمقا

وقد هجي بنو تغلب بما يعاكس هذه النكرة فقيل :

تلقاهم حلماء عن اعدائهم وعن الصديق تراهم جهّالا

٤) الحماسة ٧٧٠ : ٣-٤ ؛ والطب Goldziher, *op. cit.*, I, 224

٥) واضح انه لم يقصد بالجهل عدم المعرفة ؛ او عكس العلم ؛ وليس في هذا شيء من السحر . ولا خال الشارح العربي (في طبعة Arnold) فهم حقّ الفهم لفظة « الجهل » ، فجرّ وراءه في الهواء فريقاً من المستشرقين ، فعلّ غيره من الشرّاح .

٦) الحماسة ٤٩٠ — وقد قال الشارح : « . . . الا ان تنفر من ظلم يركبك فان الجهل في ذلك الوقت ارجح من الحلم . »

٧) العقد ١ : ٢٠٣ ؛ وعيون الاخبار ١٨٣ : ٢ ؛ و Goldziher, *op. cit.*, I, 223-224

وليس احقّ من هذه الاستعارة الغريبة في الدلالة على اخلاق العربي . فان له فرسين في اصطبل صفاته : احدهما يختال عليه مظهرًا الحلم ، والثاني — وقد يكون اميل الى استخدامه — يركبه اذا اراد الاسراع في ادراك غايته . اما اذا اراد ان يجمع النقيضين فيستحق المدح بالحلم دون ان ينالـه الهزء بالضعف فيجب عليه ان يعمل بقول الشاعر :

وتجهل ايدينا ، ويعلم رأينا ؛ ونشتم بالافعال لا بالتكلّم (١

هكذا ظهر قيس بن عاصم ، سيد بني تميم ، بل «سيد اهل الوبر» على قول محمد[٢] . وهو من مشاهير الحلماء اخذ عنه خـاصة الاحنف بن قيس التميمي . ولم يكن في الحقيقة على شيء من الوداعة واللطف ، وقد ضرب ابن عمه ، في بعض مناقشاته ، بقوسه فهتم اسنانه[٣] . وعُرف في التاريخ العربي بوأد بناته[٤] ، اي بدفنهنّ حيّـات على اثر الولادة ، لا تأخذه في ذلـك شفقة ولا شفاعة . ويُذكر ان امرأته تمكنت من اخفاء احداهنّ بضع سنوات ، فلما رآها ابوها تسير في خيمته عزم على دفنها ، فصاحت الامّ واعولت الفتاة . ولكن كل هذا لم يثنه عن عزمه[٥] .

١) الحماسة ٢٣١١

٢) اطلب ترجمته في الاغاني ١٢ : ١٤٦ ؛ العِقد ٢ : ١٢٤ ؛ الحصري ١ : ٨

٣) ابن دريد : الاشتقاق ١٥٤ ؛ الاغاني ١٢ : ١٥٤ ؛ الحصري ١ : ٨

٤) وعددهن ١٢ ؛ وقد رزق ايضًا ٢٢ ولدًا ذكرًا (اسد الغابة ٤ : ٢٣٠) ، وفي الاغاني ذكر لغير ما تقدم من فظائع قيس . على ان شخصيّته ظلّت محبّبة في نظر التقليد الا لامي لانه وفد على النبي ، ولانه حرّم على نفسه الخمرة في الجاهلية ، كما يزعمون . ومهما يكن من زعمهم فقد ظلّ يشرب الخمرة ويسكر حتى بعد وفوده الى المدينة (الاغاني ١٢ : ١٥١) اما اسطورة ابنائه الاثنين والثلاثين فقد يكون اصلها في البيت المذكور في الاغاني ١٢ : ١٥٤ . وقد ذكر الاغاني (١٢ : ١٥٥ ، ٧) احدى بناته ، واذًا فانه لم يدفنهنّ جميعًا . . .

٥) الاغاني ١٢ : ١٥٠ — وقد اراد النبي ان يفتخر بعلاشاة تلك العادة البربرية . فردّت عليه هند ، ام معاوية ، ردًا جديرًا بالانتباه (الفخري ١٤٤ ؛ وابن سعد : الطبقات ٨ : ١-٤ ، ١٧٣) وليُنتبه خاصةً لما بدا على القرشيّة من الاستغراب اذ سمعت بتلـك العادة . وهي عادة لم تتجاوز حلقةً من سادة تميم كما يصرّح الكامل (ص ٢٧٧) . وقد يكون اول من اتخذها قيس بن عاصم نفسه ، في زعم التقليد العربي (راجع Wilken, *Matriarchat*, p. 53 ...) على ان هناك من ينسبها الى المهلهل (الاغاني ٩ : ١٨٢) ومنهم من يدخلها في اسطورة امرئ

وبينما كان قيس عند النبي رآه يشمّ احدى بناته[1] فاستغرب الامر. فردّ عليه محمد بان الله نزع من قلبه ، دون شك ، عاطفة الحنوّ. فلماذا اكتفى النبي بهذا

النيس (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٧٠، ١٩ ؛ واذاً فلا يكون ابن عاصم اول من سنّها للعرب. الا ان كرهه للبنات مشهور ، كما قدّمنا ، وكذلك كره الاحنف بن قيس وهو من سادة تميم (البيهقي ٣٠٦-١٦) . اما في غير تميم فقد ذكروا ، في مكة ، رجلاً واحداً كان « يُحيي الموؤدات » اي يخلّص البنات ، وهو سعيد بن يزيد (الدرّوي ٥٦ ، وليُقرأ في السطر الخامس : ترعرعت ، وابن سعد : الطبقات ٣ : ١٤، ٢٧٧) ولكن مجال عمله كان ضيقاً ؛ لان عادة وأد البنات ، ان وُجدت في مكة ، فقد كانت قليلة الانتشار ، كما يُستنتج من كثرة فتيات قريش ، حتى ان احد القُرشيين يسمي بناته بالارقام الهندية : الاولى ، الثانية . . . (ابن سعد : الطبقات ٧ : ٢٣٠) كما كان يفعل بعض الرومانيين . على ان ارباب الحديث (الطب الكامل ٨، ٢٧) اهتموا بان يوجدوا شرحاً لائقاً للآيات القرآنية ٦ : ١٥٣ ؛ ١٦ : ٦٠ ؛ ١٧ : ٣٢ ؛ ٦٠ : ١٢ ؛ ٨١ : ٨ . . . ويؤلفوا ترجمة حياة معتبرة لذاك الحنيف المجهول السابق النبي، فاخذوا على انفسهم ان يدلّوا على موضع قرب مكة كانت قريش تعرض فيها بناتها، على زعمهم (الاغاني ٩ : ١٢٢) ولا يخفى ان الفرزدق يفتخر ويتبجّح بكون جده صعصعة كان اول من قام باحياء الموؤدات. وقد خلّص هكذا ثلاثين فتاة (ابن حجر ٢ : ٤٩٤) وهو عدد قابل لو كانت تلك العادة شاملة كما يزعمون (ابن دريد : الاشتقاق ٣، ١٤٧ ؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٨٩ J. Hell, *Farazdak's Lobgedicht*, 9) فكان ان فخر الفرزدق افضل المحدثين في هذا الموضوع . والا فكيف تمكن التميميون ان يفاخروا بعددهم الذي يوازي عدد النجوم ؟ (الاغاني ٨ : ١٨٩، ٦ ؛ ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢، ٢٤٣، ١٤) هذا ، ولا يمكننا ان نستند ، كما فعل ولهوسن ، الى بيت ورد في حماسة ابي تمام (ص ١١٧ : البيت الاخير) ، وهو مستقى دون شك من الآيات القرآنية ، او مشير اليها اشارة صريحة . فالطبيعة البشرية واحدة في جوهرها في كل زمان ومكان . اطلب في الحماسة (ص ١٤٣-١٤٢) اياتاً لوالد يعطف على بناته الصغيرات ، كما ان هناك شواهد عديدة تفيد الضدّ (ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢، ١٧٥-٤ ؛ الجاحظ : البيان ٣ : ١٧٢ ؛ العقد ٢ : ١١٩، ١٢) . ومهما يكن من امر فلا نرانا بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا ان وأد البنات لم يتجاوز بعض العشائر ، وقد كان تطبيقاً مسبّقاً للعادات الملتوزيانية ، في سبيل تحديد النسل . وهو ، لو كان شاملاً ، كما يتصوّره البعض ، لكان عقبة كؤوداً في سبيل النسل العربي . وفضلاً عن ذلك فهو لا يتفق وتعدّد الزوجات ، تلك العادة الجارية عند العرب حتى قبل محمد .

١) شمّ الاولاد من دلائل الحنوّ عند العرب . كان النبي يشمّ ابنه ابراهيم (النووي ١٣٢) وابناء ابن عمه جعفر الطيار (ابن سعد : الطبقات ٨ : ٦، ٢٠٣ ؛ ١٨، ٢٠٦) ويُقابل بما ذكر ابن حجر ٢ : ٣٢٤ وفيه ان محمداً ينسز ارنبة انف ولد صغير . وهناك غير ذلك من الامثلة (الطبري ٣ : ٩، ١٠٥٩ ؛ ٣ : ٥، ١٧٠ ؛ ٦١٨ ؛ الطبقات ٣ : ١٦، ٤٠ (عن الخليفة عثمان) الكامل ١٨، ٢١٦)

الرد البسيط ولم يفرض على قيس ان يعده بالمحافظة على بناته ؟ قد يكون ذلك لان سيد تميم وفد على النبي في سبيل معاقدة سياسية لا دينية[1]، فوجب ان يُراعى جانبه.

ومن الواضح ان رجلاً كهذا[2] كان ابعد من ان يظهر ، امام قومه ، مظهر الوداعة واللطف. ولكن الاحنف يؤكد انه تعلم الحلم من قيس[3]. قلنا: لعل قيساً استحق هذه الشهرة على اثر حادثة خارقة طالما تسامر بها الناس تحت المضارب، فجمعها هواة الاحاديث ، ودوّنها ارباب النوادر . وملخصها انه « كان قاعداً بفناء داره ، محتبياً بحمائل سيفه ، يحدّث قومه حتى أتي برجل مكتوف ، ورجل مقتول . فقيل له :« هذا ابن اخيك قتل ابنك . » فوالله ما حلّ حبوته ولا قطع كلامه . ثم التفت الى ابن اخيه فقال له :« يا ابن اخي ، اثمت بربك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك. ثم قال لابن له آخر: « قم ، يا بني ، فوارِ اخاك ، وحلّ كتاف ابن عمك ، وسق الى امه (اي الى ام اخيك) مائة ناقة دية ابنها ، فانها غريبة »[4] فكان هذا المشهد المسرحي كل ما قام به في سبيل ادراك ثاره.

بيد ان هناك حادثة من النوع نفسه، الا انها تفوق هذه بساطة وصدق عاطفة، ورباطة جأش ، كما انها تبعد عن حبّ الظهور . وهي ان احد الاعراب — وكان يجدر بالتاريخ ان يحفظ اسمه ! — قُدّم اليه قاتل ابنه ليقتاد منه، وكان اخاه ؛ فالقى السيف من يده ، وقال :

اقول للنفس تأساء وتعزيةً : احدى يديَّ اصابتني ولم تُرِدِ
كلاهما خلفٌ من فقد صاحبه هذا اخي، حين ادعوه ، وذا ولدي[5]

---

١) كانت غاية الوفود ، على الغالب ، ان تُقرّ بحكومة المدينة ليس غير ؛ وكانت ، بعض الاحيان ، تدين بالاسلام.

٢) يسكر ويكاد يتدلى على عفاف اخته ؛ يظهر امام النبي في مظهر مريب (الاغاني ١٢ : ١٥٥ ، ١٧ ؛ ١٥٦)

٣) عيون الاخبار ٣٣٦ ؛ العقد ١ : ٢١٧

٤) العقد ١ : ٢١٧ ؛ الاغاني ١٢ : ١٥١ ؛ اسد الغابة ٤ : ٢٢٠

٥) الحماسة ١٠٠

يظهر من كل ما تقدّم ان الحلم صفة الدهاة الاقوياء . وهي تفرض الغنى كما يقول حسان :

ربّ حِلمٍ اضاعه عدم المال ، وجهلٍ غطّى عليه النعيمُ[1]

كما انها تفرض المقدرة على الضرر ، دون ان يخاف الحليم عواقب اعماله[2] . وهكذا فان الحلم لا يضاف الا الى السادة والاشراف ، فيُقال « احلام سادة »[3] ، كقيس بن عاصم المتقدّم الذكر ، وابي سفيان شيخ مكة ، وطلحة[4] « حواري » النبي الغني الكريم ، وسعيد بن العاص[5] الاموي المعروف بكرمه وعطفه ، وسنان بن ابي حارثة المرّي ، احد سادة غطفان[6] ، وعتّاب ابن ورقاء الرياحي[7] ، وعمرو بن العاص وقد اكثر التاريخ الرسمي من

---

١) الجاحظ : البيان ٢ : ٢٧

٢) انظر الفصل الذي يخصه ابن عبد ربه بذكر الحلم (العقد ١ : ٢١٧–٢١٩) وهذه الصفة تبيّن لماذا لم يذكر عليّ بن ابي طالب في ذوي الاحلام ، على تفواه رأيه وحنوّه ؛ ذلك انه لم يكن على شيء من الدكاء السياسي او الدهاء ، ولا من الحزم وقوّة الارادة حتى كان يعجز عن ان يفرض طاعته على اهل العراق من حزبه (راجع خاصةً ابن سعد : الطبقات ٥ : ٢٤ ٦٧ . . .) ولقد كان من واجب السيد الحميري ، ذاك الشيعي المتحمّس ، ان يفتخر بهذه الصفة في شخصية علي . . . (راجع المسعودي ٥ : ٤٢ ، وقابل بما ذكر الجاحظ : البيان ٢ : ١٢٧ ١٣) وقد ورد فيه : « مجدود » بدل « محدود » وهي صفة طالما وصف بها عليّ . وقد يكون التصحيف مقصودًا في العقد واشباله) وهناك نصوص تمدح حلم الهاشميين اجمالًا فتقول ان الحسن بن علي تنازل عن الخلافة حلمًا ! (التوّزي ٢٠٥) اما مدّاح العباسيين فيكتفون بالاشارات البعيدة الى حلم ممدوحيهم ، وكأني هم يخافون ان يذكروهم ببيت الاخطل الخالد في حلم الامويين ! . . .

٣) الاغاني ١١ : ١٢٣ ١٢٤

٤) ابن سعد : الطبقات ٣ : ١٥٧ ١٩

٥) ابن حجر ٢ : ٩٥ ٨ ؛ الجاحظ : البيان ١ : ١٢١

٦) راجع الاغاني ٩ : ١٥١ ١٥٣ ؛ ١٠ : ١٤٨–١٤٩ ، وغير ذلك من المعلومات المتفرقة في هذه المجموعة ، وليس فيها ما يشير الى حلمه الذي يذكره صاحب العقد ١ : ٢١٩ . وقد راجعت غير الاغاني من المجاميع كالطبري والمسعودي فلم أرَ ما يبرّر حلم سنان المذكور ، الا ان يكون كرمه الذي مدحه به زهير (ابن دريد : الاشتقاق ١٧٥)

٧) وهو من مشهوري الفرّاد ، ابل البلاء الحسن على عهد عبد الملك (الطبري ٢ : ٨٠٥–٨٠٦ ، ٨٢٨ ، ٨٧٧–٨٧٨ ، ٩٤٠–٩٤٤ ، ٩٤٦–٩٥٢ . . . ابن دريد : الاشتقاق ١٢٦) . وقد

الاجحاف بحقه بسبب ما ادّاه من الخدم لمعاوية . على ان حلمه ، وكبر نفسه ، وحزمه اشهر من تُذكر[1] . ثم الاحنف بن قيس ، ومالك بن مسمع[2] وقد قيل عن كل منهما : اذا غضب ، استلّ مائة الف سيوفهم من اغمادها ، دون ان يُسأل عن سبب غضبه .[3] وهي من المبالغات العربية التي اقرّ بها الاحنف نفسه[4] . ولنضف الى هؤلاء الحلماء اسماء بن خارجة الفزاري[5] وقد « ذكر بالحلم والصبر والعقل »[6] ؛ وزياد ابن ابيه ذاك الوالي الحازم[7] ؛ واخيرًا سلمه — او سلم — بن نوفل سيد بني دُوَل يُذكر عنه ان رجلًا وثب على ابنه

مدح الفرزدق حلمه (العقد ١ : ١٩٣ ؛ ٢ : ٦١) ولا يظهر هذا الحلم في منازعاته مع المهلّب . اما في حلم هذا فراجع الجاحظ : المحاسن ١٦٣ ، ٢٧ ؛ البيهقي ٤٠٨ ؛ الكامل ١١١ ، ٢٢ ؛ الاغاني ١١ : ١٦٤ ، ١

١) اطاب في حلمه العقد ١ : ٢٢ ، ١٧ : ٩٢ ؛ كتاب الفاضل ٢٧٣ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ٦٧٨ ؛ ابن حجر ٣ : ٣ . وقد كان متساهلًا مع النصارى ؛ وظاهر في مصر رفيقًا ، او على الاقل ، ارفق ممن تبعه من الولاة الذين ضاعفوا الضرائب (البلاذري ٢١٦ ، ٢١٨) واظهر دماثة ورزانة في حادث عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان (ابن سعد : الطبقات ٥ : ٨–٩) . وراجع في بغض الشيعيين لعمرو Goldziher, *HZKM*, XV, p. 334, n. 1 ويمكن ان يُرد على هذا البغض بمدح ابن العبري : مختصر الدول ١٧٦ . ومن ادلة رزانته وحكمته ان طلحة والزبير اختاراه حكمًا في احد اختلافاتهما (ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ٣٣٢ ؛ واطاب ايضًا ٣٣٢) . اما العباسيون فقد ضبطوا املاك ذريته (الاغاني ١٠ : ١٦٩)

٢) العقد ١ : ٢٥ ، ٣٣ ؛ ابن قتيبة ١ : ٣٧٢ واطاب ايضًا الطبري ١ : ٢١٧٩ ؛ ٢ : ٢٤٠ ، ٤٤٧ ، ٥٨٤ ، ٦٨٢–٦٨٤ ، ٧٣٠ . . . وكانت بكر ، عشيرة مسمع ، تحبّه حبًا جمًا حتى عُيّرت بذلك فقيل :

وبكرٌ ترى ان البيوتَ أُنزلت على مسمع في الرحم ، وهو جنينُ

ابن الفقيه ١٣ : ١٢٣ . واطاب ، في شرف عشيرته ، ابن دريد : الاشتقاق ٢١٢–٢١٤

٣) اطاب Dozy, *Musulmans d'Espagne*, I, 139

٤) وقد يسي الاحنف حلمه احيانًا (الطبري ٣ : ٢٤٦٣) حتى في حضرة معاوية (الكامل ٤ : ٤٠) فيرفع يده على منافسه (ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ٣٣٥) . وان في ترجمة حارثة بن بدر (الاغاني ٢١ : ٢٠) ما يدلّ على ضعف نفوذ الاحنف حتى في قبيلته

٥) الاغاني ١٣ : ٢٨ ٦) كتاب الفاضل ٢٩٤

٧) الاغاني ١١ : ١٢٢ . وفي رأي معاوية ان زيادًا ورث الحلم عن ابي سفيان (الجاحظ : البيان ٢ : ٢٦) والحلم مقرون بالحزم في رأيه ، واذًا فلا يمكن ان يجرّد منه ذاك الداهية .

وابن اخيه فجرحهما. فأتي به. فقال: « ما أمنك من انتقامي ؟ » قال: « فلم سوّدناك الا ان تكظم الغيظ وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه ؟ » فاحتمل جهله ، وخلّى سبيله[1].

هذا ولا يخفى ما في الحلم ، كما في غيره من الفضائل العربية ، من الرغبة في احداث الجلبة وحبّ الظهور فهو صفة للهيئة الخارجيـة اكثر منه فضيـلة نفسية ، بل هو مظهر من مظاهر التجلّد الرواقي تشوبه صبغة فرديـة . في تلك البيئة الميّالة الى المشاهد المسرحية ، في ذاك الشعب المتحدّر دون شك عن سلالة عريقة في المدنية قبل ان تعود الى حالتها الفطرية ، يكفي الانسان بان يقوم بالفعلة البارزة المؤثرة او بالقاء الجواب المسكت الرنّان كي يتصف بصفة الحلم ، فيذكر اسمه الى جانب الحلماء المشهورين . وليس من الضرورة ، في اكتساب تلك الصفة ، ان يكبح الانسان شهواته او ان يقاوم كبرياءه او ان يطرد عن فكره الرغبة في الانتقام. بل ان من الممكن ان يتفق الحلم وما تثيره الحياة اليومية من الميول الشرسة والاحقاد المتأصلة . وهـا ان مثال قيس عاصم من اوضح الادلة على ذلك ، كما ان من اوضحها ايضاً حوادث القتل السياسي التي كان يعزّزها النبي ، والتي تتفق والحلم في اعتبار المسلمين[2].

يجتهد الحليم في ان يبرهن لنفسه ، ولقومه خاصة ، بانه فوق الاهانة فيتجنّب الردّ على الشاتم احتقاراً لـه[3] او خوفاً من شتم اشـد وقعاً[4] ، كما كان يفعل بعض الشعراء اذ يظهرون الترفع على منافسيهم فلا يردّون على

---

١) كتاب الفاضل ٢٧٥ ؛ العقد ١ : ٢٢٠ — وراجع ، عن سلم بن عوفل ، ابن دريد : الاشتقاق ٨ ، ١ ؛ الكامل ٧٠-٧٥ ؛ والطالب ، في مركز « السيدة العربي ، كثيراً من الامثال كقولهم : سيد القوم اشقاهم ، الحماسة ١٢٢) وسيد القوم خادمهم (الحصري ١ : ٢١) ولم أكُ سيدكم حتى تبدّدت لكم (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٨٩ ، ١ ، والجاحظ : البيان ١ : ١٥١ ؛ وكل الفصل في السؤدد (عيون الاخبار ٢٦٩ . . . وخاصة ٢٧١-٢٧٢) ويذكر الاغاني (٨ : ٢ و١٢ : ٧٩) وابن حجر (٣ : ٢٤٣) شيئاً عن حلم سلم مع ابن الزبير .

٢) ابن حجر ٣ : ٥٢ ، وفيه المقابلة بين الحلم والجهل ، كما سنرى .

٣) وقد يشير الشاتم هذه الخطة احياناً (ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢٢٣ ، ١٢)

٤) العقد ١ : ٢١٨ ، ٢٧ و٢٨

هجائهم[1] . وقد كان من عادة الاحنف ان يقول مفسراً حلمه : « رب غيظ تجرّعته مخافة ما هو اشدّ منه »[2]

* * *

بقي ان نتقدّم خطوة اخرى في تحليل « الحلم » ، وذلك بدرس الصفة او النقيضة التي تناقضه ، فكلّما حلّلناها حلّلنا طبيعة الحلم .

نقيض « الحليم » « الجاهل » او « السفيه » . وهو امر لا اختلاف فيه ، بل ان التناقض بين الصفتين بليغ حتى ان البشرية باجمعها تُقسم ، على قول احد الشعراء[3] ، الى حلماء وجهال . ومن المنتظر ان تكون الاكثرية المطلقة في القسم الثاني ، فلا يُرى في الف رجل الا حليم واحد[4] جدير بهذا الاسم .

وقد ادركنا اجمالاً معنى الحليم ، فلزمنا ان نسأل ماذا كانت تمثل للعرب قبل الاسلام كلمة « الجاهل » ؟ هل هو « الجهل » بمعنى الاميّة او الخلوّ من المعارف ؟ هذا ما يبدو للمتسرّع في الفهم لان « الجهل » يناقض « العلم » كما يناقض « الحلم » . ولا شك في كون الجهل بمعنى عدم العلم يقترن غالباً ، لسوء الحظ ، بضيق النظر ، والحمق ، والتسرّع ، وكلها من منافيات الحلم[5] .

ولهذا رأينا ان اشهر حلماء العرب يُعرفون بالذكاء بين معاصريهم . ذكرنا

---

١) كجرير مثلاً (العقد ٣ : ١٤٦) وغيره في الاغاني ١١ : ٤١ ; Wright, *Opuscula arab.*, p. 68,8 والعقد ٢ : ١٥٨ ; الحماسة ٥٠٠ ، ٦-٧ ; وابن قتيبة : عيون الاخبار ٣٢٧٨

٢) العقد ١ : ٢١٨ ; عيون الاخبار ٢٣٤

٣) الكامل ٥ ٤٣٥

٤) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٣٣٧

٥) قابل ما ورد في العقد ٣ : ١٧٤ ٣ ; ١٧٥ ١٥ ; ١ : ١٦١ ٩ : « لا يجهلون بعد علم . » و« يجهلون » تتضمّن المتقيضين فتناقض العلم والحلم معاً ; والمسعودي ٥ : ١٥٣ ٣ (وهو مثل غريب في ذاته وفي نسبته الى يزيد الاول ذاك الامير المثقّف المحب للعلم ، ولا شك في تصحيف النص ، على ما نرى) ، والاغاني ٢١ : ٢٠٧ ٨ . . . اما في المسعودي ٥ : ١٠٧-١٠٨ فاني اقترح ان يُقرأ النص : « سبق جهلهم حلمهم . لا « علمهم » وهو امر كثيراً ما يقع في ناموس الابدال اللغوي فتبدل الحاء من العين والعين من الحاء في اللفظ كما في قول العامة : محشّم = معهم ، وفي النصوص القديمة كثير من التقارب بين العلم والحلم حتى ان من الشرّاح من يفسّر حلم بعقل . راجع Brœnnle, *Die Commentatoren des Ibn Iyâs und ihre Schulen*, p. 53

منهم ابا سفيان ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وزياداً . وها اننا نضيف اليهم المغيرة[1] ، فتتم سلسلة « دهاة » العرب في صدر الاسلام. وقد اتينا على الاسباب التي تمنعنا من ان نضيف اليهم علي بن ابي طالب ، وهو « محدود » بعيد عن الدهاء السياسي.

وان من المفيد ان نلقي الآن نظرة على التخريج اللغوي للفظة « عقل » . للغويي العرب تحليلات عميقة دقيقة حتى انها تتجاوز الحدّ احياناً ، منها انهم قالوا : «سُمّي العقل عقلاً لانه يعقل (اي يربط) الجهل . »[2] فلو قبلنا بهذا المعنى الاصلي ، أو يكفينا في تحليل كل ما تحتوي عليه لفظة « الجهل » اذا ما قوبل بها الحلم خاصة ؟

اننا لا نرى ذلك ، لانه يقودنا الى ان ننسب للبدو قبل الاسلام اهتماماً بالامور العقلية والثقافية لا يمكن ان نسنده الى شيء. كان العرب قبل الاسلام يخصّون باعتبارهم صفةً واحدة ، بل فضيلة انسانية شاملة ، هي « المروّة » . اما « العلم » فقد وجب عليهم ان ينتظروا ظهور الاسلام والتشاره كي يعرفوا وجوده . واذاً فليس « الجهل » نقيض « العلم » بالمعنى الحصري.

هذا من جهة . ومن جهة اخرى فاننا نراهم كثيراً ما يفتخرون «بجهلهم». وقد تقدّمت لنا الشواهد على ذلك . أوَ يكونون ، حتى في « جاهليتهم » ، على تلك الدرجة من الانحطاط كي يفتخروا « بعدم العلم » . ليس في « الجاهلية » شيء من مبرّرات الاحتقار ، ولا من دوافع الازدراء . انما هي ذاك الزمن « السعيد » الذي كان يعيش فيه الناس مستريحين ، دون ان « يعرفوا ما محمد » كما يقول الاخطل[3] ، دون ان يخافوا من « السلطان » و «الحدود» التي سنها القرآن . هذا هو معنى الجاهلية الاصلي ليس غير . اما كل ما علق باللفظة بعد ذلك من معاني الاحتقار والازدراء ، فانما كان بتأثير العباسيين.

---

١) اطلب ، في حلم المغيرة ، الطبري ٢ : ١١٣-١١٤ ؛ الثوري ٥٧٣

٢) قابل بما في ابن دريد : الاشتقاق ٢٩ ، ١٤٦ ، ٥ : العقل يمنع عن الجهل ؛ ثم : ان لكم احلاماً وعقولاً . (الازرقي ٢٦٣)

٣) الديوان ٤٢٣١

من السهل ان تعدّد الامثلة والنصوص القديمة التي يظهر فيها فعل « علم » مناقضاً لفعل « جهل »[1] ، وفي كلها يتقدّم « علم » . وهناك نصوص تبدأ فيها الجملة « بجهل » وتنتهي « بعلم »[2] . وغيرها نرى فيها مقابلةً بين « علم » و« حلم » على طريقة في الانشاء اثيرة لدى العرب[3] . ومهما يكن من امر فيمكننا القول انه كلما رأينا في المقطع الاول من الجملة لفظة « حلم » ، كان لا بدّ ان تأتينا المقابلة والتضادّ بلفظة « جهل » . واذا اتى في المقطع الاول « جهل » او « سفه » ، وهما مترادفان ، اتى على الغالب في المقطع الثاني « حلم »[4] . نستنتج مما تقدّم صلة بين هذه المعاني ، او ، على الاقل ، ان « الجاهل » لا يناقض « العالم » دائماً ، وان الجهل بمعنى نقيض العلم ، وان كان مضموناً في اصل اللفظة : فهو لا يمنع كون اللفظة تدلّ ايضاً على التسرّع والاندفاع والحمق والشراسة وما الى ذلك مما كان يراه العرب بعض الاحيان من صفات الرجولة . حتى يظهر من الصعب احياناً ان يميز المفسر او الشارح في لفظة « الجهل » ومشتقاتها بين هذين المعنيين المتجاورين[5] . وقد استفاد الاسلام من هذا

١) اضف الى ما تقدم ذكره من الامثلة الاغاني ١١ : ١٣٠ ، ١١١ : ١٣٠ ؛ القرآن ١١ : ٤٨ ؛ المتلمس : الديوان ٣ : ٢ .

٢) الاغاني ١١ : ١١٠ ، ٢٠ : ابن دريد : الاشتقاق ١٦٠٩٣ ؛ اليعقوبي ٢ : ٢٢٥ — وقد يُخلط بين « علم » و« حلم » في الكتابة كما يُخلط بينهما في اللفظ . ومما يجدر بنا ذكره ان المثل المعروف المشهور « ان العصا قُرعت لذي الحلم » (الحماسة ٩٧) يقابل قولنا : *Intelligenti pauca* ولم ينبه غويّو العرب حق الفهم في عهد تفسير النصوص القديمة ، اطلب Becker, *Die* K. Vollers, *Gedichte des Mutalammis*, I, v. 8 و *Kanzel*.... p. 339 وفيه يترجم « ذو الحلم » ترجمةً لا غبار عليها بلفظة *der Verständige* والشطر الثاني من البيت : « وما عُلّم الانسان الا ليعلما » يؤيد هذا المعنى . ثم ان الآية الانجيلية المشهورة (متى ٥ : ١٦) عبّر عنها العرب الاقدمون بقولهم : « كونوا حُلماء كحليّات . . . » ابن قتيبة : عيون الاخبار ١ : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

٣) الفروي ٢٩٣ : الجاحظ : البخلاء ٢١١ ؛ ٢٧ : ٦ ؛ البيان ١ : ١٦٧ ، ٦ : ١١١ ، ٢ : ١٠٢ ، ٨ : ابن قتيبة : عيون الاخبار ٧٤ : العقد ١ : ١٦١ ؛

٤) الحطيئة ٣٦ : ٣ ؛ البلاذري ٢٤٣ : ١٢ ؛ وديت ابن ابي الحُقيق في الاغاني ٢١ : ٢٩٣ : الحماسة ١١٣ ، ٥٢٩ ، ٦٩٣ .

٥) كما هو الحال في الآيات القرآنية ٤ : ٢١ ؛ ٦ : ٥٤ ؛ ١٥ : ١٣٠ وغيرها . وفيها لفظة

الازدواج بالمعنى فوصم عصر الجاهلية بالجهل نقيض العلم ، والصق بابي جهل — وهي في الاصل كنية لا احتقار فيها — هـذا المعنى الازدرائي الظاهر في بيت حسّان :

سَمَّاه ربُّه ابا حكمٍ واللهُ سمَّاه ابا جهلِ (١

اما في اصلها ، فمعناها المتسرّع ، المندفع ، الـذي لا يضبط عواطفه ولا يملك نفسه . ولقد كانت خليقةً بان تُطبّق على غير واحد من اقارب ابي جهل من آل مخزوم ، وهم مشهورون بانفتهم وترفّعهم وتيههم ؛ اوَ لم يقـل معاوية : « اذا لم يكن المخزومي تيّاهاً لم يُشبه قومه . »[٢] وان يكن الحديث قد حفظ هذه الكنية باغتباط ليعيّر بها ابا حكم ، فلقد فعل ذلك لما اظهر الرجل من مقاومة عنيفة للاسلام[٣] . واذا استُعمل « الجهل » نقيضاً للحلم — ولنا الشواهد العديدة على ذلك[٤] — يُدلّ به على جميع الصفات ، فضائل ونقائص ، الناتجة من حياة البداوة الشظفة غير المثقّفة[٥] يعدّها تسرّع الشباب[٦] ، ومجـاوزة الحدّ في

« بجهالة » تفيد : « بتهوّر وتسرّع » ، كما انها تفيد : « عن غير علم » . انظر ايضاً هجاء النابغة الذبياني لملك الحيرة : « وارث الصانع الجبان الجهول » ، وفي « جهول » المعنيـان المذكوران : عدم العلم ، والتسرّع والحمق .

١) حسّان : الديوان ١٢٨ : ١

٢) الجاحظ : البيان ٢ : ١٧٧

٣) ابن دريد : الاشتقاق ٩٢ . وانظر في ابن قتيبة : عيون الاخبار ١٨٣٢٦ ، ما كان يوليه من الاعتبار اهل مكة .

٤) يُضاف الى الامثلة المذكورة اعلاه ، والى ما ذكره غولدسيهر في الجزء الاول من « دروسه المحمدية » ، ما يلي : الحماسة ٤٩٩ ، البيت الثاني قبل الاخير ؛ ٣٠٥١٢ ؛ ٥٠٥٢٢ ؛ ٣٠٦٩٢ ؛ ٥٠٧٣٥ ؛ Wright, *Opuscula*, p. 120, 4 ؛ الاخطل ٣٠٦٨ ؛ الاغاني ٢ : ١١٦ ؛ ٤ : ١٢١ ٣ـ٤ ؛ ٦٠٥٣ : ٨ ؛ ١٠٥٤ ؛ ٥٠١٠٥ ؛ ١١ : ١٠٧٦ ؛ ٩٠٨٣ ؛ ١٠١ ؛ ٩٠١٤٦ ؛ ١٣ : ٣٠٤٦ ؛ ١٦ : ١٥ . ولقد غنّت احدى النيان في حضرة الرشيد فغيّرت قول الشاعر في بني اميّة « يحلمون ان غضبوا » بقولها : « يجهلون ان غضبوا » (الاغاني ٤ : ١٦١)

٥) قابل بقول يهود المدينة لاحمد : « ما كنت جهولاً ولا فـاحشاً » (المسيس ١ : ١٢٠٤٩٤)

٦) الجاحظ : المحاسن ٩٠٢٣٨ وهو يشير الى ان الانسان كلما طعن في السن نقص جهله ؛ الحماسة ٢٠٤٩٩

استعمال القوّة اذا لم يضبطها العقل . فالجاهل عدوّ لحبّ السلام[1] ، ظلوم لا يعرف العدل الصحيح[2] ، وقد يذهب ضحية اهوائه فتخطّه النساء.[3] . والجاهل ضعيف الرأي، قليل التفكير[4] عاجز عن ضبط بوادر غضبه[5]، شبيه بمن يعرف عند اللاتين بـ «*impotens sui*»[6] . الجهل هو جفاء البدو[7] في عاداتهم الجاهلية[8] وفي كلامهم الخشن البذي.[9] ، وفي تناسيهم واجبات المخالقة والمصانعة. الجهل يعرّض ارباب لخفر الذمم ، ولانتهاك حرمة قانون الشرف الذي سنّته عادات القفر ، بل لاحتقار شرائع الضيافة[10] ، وواجبات الصداقة[11] والجهل

---

١) قابل بما في القرآن ٢٥ : ٦٤ : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً . واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً »

٢) في القرآن ٣٣ : ٧٢ : « . . . وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً . »

٣) في القرآن ١٢ : ٣٣ : « . . . وإلّا تصرف عني كيدهنّ أصبُ اليهنّ وأكن من الجاهلين . »

٤) راجع بيتي الافوه الاودي في الشعر والشعراء ١٠٠ : ١٧ حيث يقابل « الجهّال » « بأهل الرأي » .

٥) الاغاني ٣ : ١١٦ ، وفيه لفظة « الجاهل » تفسر لفظة « حديد » : قابل بالجاحظ : البيان ١ : ١٠٤ : ١٩ : « الحدّة كناية عن الجهل »

٦) يجب ان نفهم بهذا المعنى قول المثل : « المنى والحلم اخوان » (ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ٩٠ : ١٢)

٧) العقد ٣ : ٣٠٧ : ٢١

٨) الخصري ٣ : ٣٤٨ . قابل بالعذر الذي تقبله ليلى لصاحبها توبة : « كان فتى له جاهلية » وكل هذا النصّ يدل على ان ليس في لفظة « جاهلية » معنى عدم العلم . انما تريد الشاعرة ان تبيّن ان صاحبها المسلم لم يتمكّن من الاخذ بالعادات الاسلامية الجديدة التي تعاكس حياة « اللهو » القديمة . وفي « اللهو » مرادف « للجاهلية » . وهناك من يذكر عادات بعض الفرتيين الفظّة قبل الاسلام ، ويزيد تفسيراً لها : « كانوا اهل جاهلية » (الاغاني ٨ : ٥٢ : ١) وقد يُذيع الخمول الاسرار (عيون الاخبار ١ : ٦١ : ١٤)

٩) الاغاني ٣ : ١١٦ ؛ ١١ : ١١٩ : ١٩ : « كان حديداً جاهلاً » . الجهل يرادف الحمق ، في الاغاني ١١ : ١٤٦ : ٦ ؛ ابن قتيبة ٥ : ١٤٦

١٠) الحماسة ٣٦٩

١١) الاغاني ١٦ : ١٤ ، وقابل بقول حارثة بن بدر : « ان سبّني جهلا بذبي » (الاغاني ٢١ : ٤٢ : ١٩) وان من صفات الكمال ان يظنّ الانسان حليماً حتى في سكره (الاغاني ١١ : ١٤٧ : ١٣

يمنع صاحبه الاضطلاع بالروح الجديد الذي ادخله الاسلام بين العرب، والذي كان من الصعب على اول المسلمين، كتوبة صاحب ليلى الاخيلية، ان يسيروا بوجهه.

وقد احتجّ كثير من ولاة الامويين على بقاء تلك الصيغة القديمة، فاكثروا من الخطب في الجوامع[1] ولكن دون جدوى. فقد ظلّت روح «الجاهلية» سائدةً مدة طويلة. وكان افضل السامعين واكثرهم اذعاناً للمذهب الجديد، مَن امكن ان يُقال عنهم: «ستر حلمُهم جهلَهم!»[2]. على ان ما لم يصل اليه ولاة الامويين بخطبهم التهديدية في منابر الكوفة والبصرة، ادركه العباسيون اذ جهدوا في دكّ النظام الاجتماعي العربي القديم فاخضعوا الجباه لسلطتهم المطلقة، فلاشوا تلك الصفات القديمة، وقضوا على «المروءة» العربية وما فيها من عناصر صالحة كان من الممكن استخدامها في سبيل النظام الجديد، لو كان لهم شيء من الدهاء السياسي المرن.

قد يتنج من كل ما قدّمنا ان «الحلم» العربي مظهر خارجي، وهيئة ظاهرة موافقة للحالة الحاضرة اكثر منها فضيلة عميقة على قول الاحنف: «لست حليماً ولكني اتحالم!»[3]. وهو مظهر ضروري في تلك البيئة الديموقراطية حتى الفوضى. فوجب على من شاء الاتصاف بالحلم ان يبالغ في كظم غيظه، فلا يتسرّع في القول ولا في العمل، والا تكون العاقبة وخيمة اذ انّ لكل

١) راجع خطابة زياد في البصرة (الطبري ٢: ٧٢ ...)

٢) قابل بما في الجاحظ: المحاسن ١٤٢٣٩؛ والحماسة ٣٠٥٢٢: ٥٠٥٢٩؛ والمصري ٣: ٣٠٦. وفي الآداب العربية النصرانية القديمة نرى «جَهَل» بمعنى «أثِم، أخطأ، ضرّ» راجع Dr. G. Graf, *Sprachgebrauch der aeltesten christ. arabischen Litteratur*, p. 86 وقد ورد في الحماسة (٦٥٠) «جهل» بمعنى اهان حتى ضُرب فجاء:

وهم جهلوا عليك بغير جرمٍ ... وبلّوا منكبيك من الدماء

وجاء فيها ايضاً (٦٢٦) «الجهل» بمعنى الكيد، وحبّ الضرر:

جهلا علينا، وجبناً من عدوّهم ... لبئست الخلّتان: الجهل، والجبنُ

ولْيُقابل هذا البيت الغريب وفيه «الجهل» بمعنى جيشان القدور على النار (الحماسة ٣٠٧٥٠):

ردُهم تصادجا الولائد جلْبة ... اذا جهلت اجوافها لم تحلّم

٣) العقد ١: ٦٢١٨؛ وانظر بعض مواقف الاحنف، ورأي معاوية فيه، ان قتيبة: عيون الاخبار ١٠٢٧٤

فعل تأثيره البعيد في المحيط العربي . فتعلّم البدويّ الحلم خوفاً من عواقب تسرّعاته ، كما تعلّم اجتناب اهراق الدمـاء خوفاً من الثار ، لا حبّاً للمؤاخاة الانسانية . واخذ « السيد » يعمل على تلافي البوادر حفظاً للتوازن في القبيلة . وكان من العادات البدويـة القديمة ، التي لانخطئ اذا دعوناها « بالبرلمانية » ، ما فتح له المجال الواسع لاستعمال الحلم ، فغدت هذه الصفة من اشهر الصفات السياسية والادارية ، وغدا ارباباً جميعهم من كبار رجال الدولة ، وقد اضطرتهم الاحوال لمخالقة الجماهير ومداهنة الرأي العام .

هذا في مجرى الحياة العامة . اما اذا عرضنا الحلم في الصفات الشخصيـة ، وانتبهنا لما في طبيعة البدوي من الكبرياء واحتقار الغير والميل الى التخلّق بالاخلاق الحكيمة ، فانه يبدو لنا صورة مصغّرة ، بل مشوّهة لفضيلة الوداعة المسيحية .

ولقد عرف العرب فضل الحلم لما فيه من هـذا المزيج الغريب الرامي الى التوازن بين الفضائل والنقائص ، وهم ابعد من ان يقدروا قيمة الفضيلة البسيطة الوديعة التي لا تُظهر جلبة ولا تحدث ضجـة فلا يعرفها الا ضمير الانسان ولا يراها الا الخالق « الذي يرى في الخفية » . ولعل كان من وجود حاتم الطائي ، ذاك المثال الاعلى للكرم والجود ، لو لم ننشر مآثره الشعراء ؟ أوَ لم يكن حاتم نفسه يرى في الكرم لا الاحسان الى بني جنسه ، بل مادّة الفخر والمجد الساتر المذكور ، فيقول متبجّحاً :

أماوي ان المـال غاد ورائح ... ويبقى من المال الاحاديث والذكر (١)

وان من الصعب الا نحكم مثل هذا الحكم على الحلم ، اذا مـا ذكرنا مواقف الحلماء ، ورغبتهم الشديدة في الشهود ، وميلهم الى الافتخار بحلمهم في اشعارهم واقوالهم ولا يخفى ان هـذه التحفظات تحطّ ، دون شك ، من قيمة تلك الصفة الاخلاقية . بيد اننا لا ننكر منفعتها العظيمة في تلك البيئة العربية التي كثيراً مـا حاول المصلحون ان يخفّفوا فيها من نتائج الفوضى ومساوئ القوة الغاشمة ، فلم ينجحوا . حتى ان الاسلام نفسه عجز عن تثقيف العرب ثقافـة سياسية دائمة .

(١) اطلب ابن قتيبة ١٢٧-١٣٢ ؛ و Goldziher, op. cit., I, 45, n. 11